مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة النوبيرية

« في صحراء ليبيا »

لأحمد حسنين

للدكتور زكي مبارك

— ٧ —

بسم الله الرحمن الرحيم

كذلك هتفتُ وأنا أهمّ بكتابة مقال عن هذا الكتاب ، لأنه صعب المنال ، ولأن القدمة التي حبَّرها لطفي باشا السيد لم ترشدني إلى طريق تقديمه إلى القراء ، وأنا أرجو أن تنفعني بركة « البسملة » فأسجل بعض ما سنح من الخواطر عند قراءته المريعة ، وهي جهد المقل في ثلاث سهرات

الرحلة

هي رحلةٌ قام بها حضرة صاحب المعالي أحمد محمد حسنين باشا سنة ١٩٢٣ من السلوم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، إلى الأُبيّض عاصمة مديرية كردفان بالسودان ، وهي مسافة قدرُها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر قُطعتْ على ظهور الإبل ، وفيها وُفّق الرحالة إلى كشف واحتين مجهولتين هما « أركنو » و « العوينات » ، وكانتا غير معروفتين قبل ذلك للجغرافيين .

وقد سُطِّر تاريخ هذه الرحلة في نحو أربعمائة صفحة بالقطع المتوسط ، وهي مقسمة إلى جزأين ، وفيها كثير من الرسوم العلمية والجغرافية

شخصية المؤلف

هو رجل لم تلده ولّادة ، كما يعبِّر أهل مصر حين يصفون فتًى من النجباء . وقد حدثنا هذا الفتى عن أهله ، فلم نعرف إلا أن أباه كان من علماء الأزهر الشريف ، وقد تلطّف لطفي باشا السيد فحدثنا أن جد المؤلف كان من الباشوات ، ولم يذكر بأية صفة نال ذلك الجد رتبة الباشوية ، وأغلب الظن أنها الباشوية التي كانت تمنح لرجال الجيش ، فإن لم تكن كذلك فهي باشوية لم تقض على وارثي جاهها الفخم بمحنة الترف والملين ، وإنما أورثت حفيدها القدرة على أن يقول : إن أهله كانوا من ساكني البادية ؛ وعلى أن يقول : نحن أهلَ الصحراء ، لا يغنينا النوم عن العشاء

وقد كان أحمد حسنين في كل أدوار ماضيه من نماذج الفتوّة واللوذعية ، عاش في انجلترا حيناً فكان صورة للفتى الموسوم بالبراعة والشهامة والصدق والجاذبية ، ولم يمنعه تحضّره من الاتصال بالبادية ، فاعتُمد عليه أيام الحرب الماضية في السفر إلى الصحراء الغربية للاتفاق مع زعمائها على رعاية واجب الجوار في احترام الحدود

ثم طوحت به همته إلى اختراق تلك الصحراء ليكشف واحتين كان لهما في أذهان أهل البوادي خيال ، ولم يكشفهما أحد من قبل ، فكان للتوفيق من حلفائه الأوفياء

ثم أراد أن يكون طياراً ، ولكن الحوادث أرادت غير ما يريد ، فقد طار من انجلترا إلى إيطاليا ، ثم سقطت طيارته ، فأصلحها وطار ، ثم سقطت فأصلحها وطار ، وقد صمم على أن يدخل مصر طائراً ولو سقط بطيارته في جوف المحيط ، ولكن برقية كريمة صدرت إليه بوحي من الملك فؤاد ، قهرته الطاعة على أن يدخل مصر وقد امتطى الماء ، لا الهواء ، وتلك أعظم محنة عاناها ذلك العربي الصوال.

الإنسان الكامل

وما أريد الإنسان الكامل في اصطلاح الصوفية ، وإنما أريد القول بأن أحمد حسنين كان رجلاً كامل الرجولة حين اخترق الصحراء في سنة ١٩٢٣ ، والرجولة التي أعنيها هي الرجولة المبرأة من شوائب الضعف والتفاهة والقنوط . كان أحمد حسنين في ذلك العهد رجلاً بكل معنى الكلمة : كان بدويًا في مواطن البداوة ، وحضريًا في معاهد الحضارة . كان حليما في أوقات الحلم ، وجاهلاً في أوقات الجهل ؛ فكان له في كل حالة لَبوس ، وكان في جميع أحواله صورة من الرجل الذي يرى الخُلق الصحيح في رياضة النفس على مسايرة ظرف المكان والزمان

ومن المؤكد أن رحلة الصحراء نفسته في مركزه الحاضر ، وهو رياسة الديوان بقصر جلالة الملك ، فقد وصفته مجلة

« آخر ساعة » وصفاً هو أعجب الأوصاف ، حين قالت : إن أحمد حسنين يتمتع بأعظم المواهب السياسية ، لأنه أقنع الجميع بأنه رجل غير سياسي[1]

وأعود إلى تأثير الصحراء في عقل أحمد حسنين فأقول :

عاش هذا الرجل نحو ثمانية أشهر في ظلال المخاوف والحتوف ، وكانت الرِّيب تحيط به من كل صوب ، وكانت الثعابين تداعبه من حين إلى حين ، وكان يُؤْثِر مُرَى الليل ليتجه ببصره إلى ناحية واحدة ، ومن هنا عرف أن الظلمة قد تنفع (والسياسي يعيش في عوالم من الظلمات ، ولو سطع النور حول أغراض السياسي لتخاذل وضاع) .

الرحالة :

لا يدلنا كتاب أحمد حسنين على أنه كان رجلاً من المُترفين حين قام بتلك الرحلة العاتية ، وإنما يشهد كتابه بأنه كان رجلاً من صميم البادية . كان رجلاً يهمه أن يقيم البراهين على أنه لم يتعلم في جامعة أكسفورد غير حزم الأمتعة ، والتعرف إلى مواطن الخوف والرجاء في مفاوز الصحراء

هو فلاح متحضر ، فهو لذلك أذكى الرجال وأعقل الرجال

وقد عرف هذا الفلاح المتحضر ما في البادية من مكر ودهاء ، فهو يلبس لُحلة ذكائه في كل وقت ، ويشتمل بثوب مكره في كل حين

وما ظنكم برجل تحيط به الشكوك من جميع الجوانب وهو فريد وحيد ثم ينتصر بلا مشقة ولا عناء ؟

ذلك هو أحمد حسنين الذي ائتمنه الملك فؤاد واصطفاه الملك فاروق ، ومن الصعب جداً أن يكون الرجل أهلاً لثقة الملوك ، فذلك مقام لا يظفر به إلا الأقلون من أعاظم الرجال

وقد فَطِن أسلافنا إلى أن صحبة الملوك تحتاج إلى تثقيف خاص ، فوضعوا المؤلفات الطوال في التعريف بما يجب أن يتحلى به أمناء الملوك من شمائل وآداب . وهذا الفن من التأليف لم يكثر إلا في العصور التي ازدهرت فيها الحضارة العربية والإسلامية ، وإنما كان ذلك لأن ازدهار الحضارة يزيد في مشكلات المجتمع من النواحي الذوقية والاجتماعية ، وتلك حال تزيد فيها نسبة من يتصلون بالملوك ، لأنهم عندئذ يكونون صلة الوصل بين الحاكمين والمحكومين ، وعلى ذكائهم وبراعتهم وإخلاصهم يرجع الفضل في حل أكثر المعضلات ... فمن خَطَل الرأي أن يظن بعض المتعاقلين أن إكثار أسلافنا من التأليف في هذه الشؤون دليل على أنهم كانوا يعيشون في عصور الاستبداد

أغراض المؤلف

للمؤلف في ظاهر الأمر غرض واحد : هو تسجيل رحلته في الصحراء ، ولكن من الذي يقف به القلم عند ما كان يريد ؟ إن النفس تتفتح عند حمل القلم من وقت إلى وقت ، وتتنادى خواطرها من فصل إلى فصل ، فإذا بلغ القلم نهاية الشوط كانت النسبة بين ما ابتدأ به وما انتهى إليه كالنسبة بين النواة الضامرة والسَّرحة اللفَّاء

يقع كتاب أحمد حسنين في عشرين فصلاً ، وله في كل فصل مجالٌ خاص ، وفقاً لاختلاف الأغراض

فالفصل الأول عن الصحراء من نواحيها المادية والروحية ، وفي هذا الفصل كلام يقوله كل الناس ، إلا كلامه من الشوق إلى ما في الصحراء من متاعب وعذاب ، ولا تظهر قيمة هذه النزعة لمن يقرأها في الفصل الأول إلا حين يمانى وقدها في الفصل الأخير ، ذلك بأنها تواجهه أول مرة وهي أشبه بالفلسفة الروحية ، والناس قد يقرأون الفلسفة هادئين ، ولكن هذه النزعة لا تواجه القارئ في الفصل الأخير إلا بعد أن يكون شارك المؤلف في الأنس بالصحراء ، وعندئذ يحق له أن يتوجع لبلواه حين يقول وقد وصل إلى دار الأمان :

« ودب في نفوسنا جميعاً دبيب الابتهاج بعودتنا إلى الاتصال بحياة الحركة ، ولكني شعرت حين انقلبت إلى فرائي بوخزة حزن في قلبي ، لأن ذلك اليوم كان آخر أيامي في الصحراء ، ورأيتني أضيف إلى صلوات شكري دعاء خالصاً أسأل الله فيه أن يقدر لي العودة إليها يوماً من الأيام »

وفي الفصل الثاني يتكلم المؤلف عن وضع خطة الرحلة فيقول كلاماً يقوله سائر الناس ، ولكنه يفاجئك بكلام نفيس عما صنع أبوه رحمه الله ، وهو يزوِّده بالبخور والدعوات الصالحات

(١) السياسة في الأصل رياضة الخيل ، مشتقة من ساس بالعبرية وهو الفرس .

ومن كلامه عرفت أشياء من عادات العرب فى التأهب للرحيل

وقد أطنب المؤلف فى الثناء على أبيه ، ثم أعرب عن فجيعته لوفاته بعبارات لا تصدُر إلا عن نجباء الأبناء ، وما مات من خلَّف مثل أحمد حسنين

وفى الفصل الثالث يقف المؤلف موقف المعلم لمن يحاولون اختراق الصحراء ، فيقدم من المعارف الضرورية للمغامرين أشياء يحتاجون إليها أشد الاحتياج

وفى الفصل الرابع تظهر طلائع المخاوف ، ونرى كيف يضطر الرحالة إلى تغيير خطة السير لينجو من مكايد الأعراب

وفى الفصل الخامس يتحدث المؤلف عن السنوسيين بكلام ينهض على قواعد علميـة ، فيذكر تاريخهم بإيجاز ، ويشرح عقائدهم بالتفصيل ، ومن الواجب أن يدرس الطلبة هذا الفصل ، لأنه من عيون الكتاب ، ولأن موضوعه يهم أعضاء لجنة الامتحان

« وهنا أذكِّر الطلبة بأن الامتحان له قواعد ، ومن أهمِّ قواعده أن تَرِد أسئلة فى الموضوعات الرئيسية ، فمن واجب كل طالب أن يُعنَى عناية شديدة بالموضوعات التى لا يجوز جهلها على الإطلاق ، فإن التمكن فى تلك الموضوعات يغفر الضعف فى الموضوعات الفرعية بعض الغفران ... وأذكِّرهم أيضاً بأن هناك شؤوناً تظهر كالتوافه ، ولكنها رئيسية ، كوجه التسمية لواحة أركنو ، فهى مسألة هينة ، ولكن الجهل بها يدل على عدم الاكتراث ... ثم أذكرهم بأن الطالب الذى يُختَبر فى كتاب أحمد حسنين سيسأل حتماً عما قال المؤلف فى وصف الواحتين الجديدتين ... وأذكِّرهم كذلك بأن فى المقدمة التى كتبها لطفى باشا كلمة مهمة عن ارتياد تلك الصحراء فى عهد الفراعين »

وفى الفصل السادس يتكلم المؤلف عن واحة جنبوب ، وهى واحة مصرية نهبها الطليان منذ سنين ، فليقرأ الطلبة أخبارها ، وليذكروا أن لهم إليها عودة بعد حين

وفى الفصل السابع يتحدث الرحالة عن الولائم والأدوية ، فيذكر أشياء تنفع من يفكر فى ارتياد تلك البقاع

وفى الفصل الثامن يتكلم عن الزوابع فى طريق جالو ، ويصفها وصف العارف الخبير ، والبدو هناك يرون الزوابع من عمل الجن ، فليذكر الطلبة أن الزوبعة هى الجِنّية فى لغة العرب ، ولها اسم بهذا المعنى عند عوام المصريين ، فهم يرون الزوبعة من الأنفاس الخلفية للعفريت

وفى الفصل التاسع يفصل القول عن واحة جالو ، ويذكر ما بينها وبين الطليان من نزاع وشقاق

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

لا أرى من الضرورى أن أشير إلى بقيـة الفصول ، لأن هذه الإشارات العوابر لا تغنى عن المراجعة والاستقصاء

وإنما أرى من الحتم أن أوجه الطلبة إلى درس هذا الكتاب ، ولا يتم ذلك إلا بدعوتهم إلى تعقب ملاحظات المؤلف ، وتمرُّف ما كان يجول بنفسه من خواطر وشجون

وأقول إن المؤلف مولع بوصف الأجسام فلا يرى شخصاً إلا حدثنا عن قوامه وعينيه ، فما سر ذلك ؟

يرجع السرّ إلى أن المؤلف عاش دهره موصول الأواصر بالأندية الرياضية ، ومن هنا غُرست فى نفسه بذور الثقافة الجسمية ، فهو ينظر إلى الأجسام قبل أن ينظر إلى العقول ، وهى نظرة تدل على أنه رجل سليم Normal ويؤكد هذا المعنى غرام الرجل بالإبل والخيل ، فهو جمّال إن أردت ، وفارس إن شئت ، وهو فوق هذا وذاك يحسّ مذاق الظل ، وقد يتذوق طعم الغُبار فى بعض الأحايين

يمرّ أحمد حسنين بعظام رجل ميت فيستأنس ، وكان الظن أن يستوحش ، وإنما استأنس برؤية عظام الميت لأنها تشهد بأنه يسير فى طريق سلكها الناس من قبل

ويهتم أحمد حسنين بدرس عادات البدو دراسة مضمَّخة بعَبير الشوق والحنين ، وهو يرد تلك العادات إلى أصولها من العواطف الدائبة ، فالفتاة التى يحرق حِذاءها البارود تُزكى وتختال ، لأن ذلك شاهد على أنها تَفُلّ ألباب الرجال

وفى هـذه المرحلة يصرخ أحمد حسنين صرخات تنطق بأنه من أصحاب الأذواق

وهذا الرجل المفتون بالبادية هو أيضاً مفتونٌ بالحاضرة أعنف الفتون ، فلا يطيل المكث إلا فى المواطن التى يكثُر فيها اشتباك العواطف والأهواء

وهنا أظفر بأحد مقاتله فأصرح بأنه لم يعش طويلاً فى الواحتين

الجديدتين — وهما محصوله الأصيل فى تاريخ الاستكشاف — وإنما عَبَرها عُبور الطيف ؛ لأنهما خاليتان من مواسم العيون والقلوب

وما عددت هـذا من مقاتله إلا رياء ، فالجمال الحقيقى هو الجمال الإنسانى ، لأنه يفهم عنا ما نريد ؛ أما جمال الطبيعة فهو جمالٌ غبيٌّ بليد ، ولا يكتفى بالأنس به إلا المتحنون بالحرمان ، وما كان أحمد حسنين من المحرومين

أحمد حسنين يتفاءل فى فرستين : الأولى أن يَرِىَ ظبياً فيصميه ، والثانية أن يرى فى صبيحة السفر وجهاً جذاب الملامح وضّاح الجبين

فمن يكون الرجل السليم إن لم يكن هـذا الرجل نموذجاً للرجل السليم ؟

ثم يجب النص على اهتمام أحمد حسنين بأداء الصلوات ، والتبرك بالأذان ، فتلك شواهد على ما صرح به غير مرة من أن الصحراء تزيد فى قوة الإيمان ، وهو التصريح الذي أتاح لمعالى الشيخ مصطفى عبد الرازق بك أن يقترح إرسال علماء الأزهر إلى الصحراء !! والنكتة الدقيقة من أبرز عناصر الفن الرفيع

الأسلوب

أحمد حسنين ليس من أصحاب الأساليب ، فليس له فى الإنشاء مذهبٌ خاص ، وهو فيما نعلم لم يفكر فى أن يكون له مكان بين الكتّاب ، وإن كان من أكابر الأدباء

وقد أنشأ كتابه أول مرة بالإنجليزية ، ثم ترجمه إلى العربية وهذا يفسّر ما نشهد من تفاوت الأسلوب من حين إلى حين .

ولكن الكتاب مع هـذا على أعظم جانب من الحيوية ، فما سرّ ذلك ؟

يرجع السر إلى قوة إحساس المؤلف ، فكل سطر من كتابه ينطق بأنه يَعنِى ما يقول ، وسياق الحديث يدل فى كل صفحة على أن الرجل جابَ الصحراء وهو مرهف الحسّ ذكىّ الجنان ، وملاحظاته فطريّة بعيدة من التكلف ، فهو يُشعِرك بأنه بدويٌّ لا يرى غير ما فى البادية من مخاوف وآمال ، وهو ينقلك إلى تلك المجاهيل بقوة سحرية فتسايره بتلهف وتشوق ، كأنك عانيت من سابها ما عانَى وذقت من رحيقها ما ذاق

وإحساس أحمد حسنين يصل به إلى تذوق جميع الألوان ، هو إحساس رجل سليم يرى ويسمع ويذوق بقوة وعنف ، وكأنه طفلٌ يطّلع أول مرة على غرائب الوجود

تقدَّم إليه المائدة وهو فى البادية فيُقبل عليها إقبال البدوى الفرثان ، وينص على أنه أكل بشهية ، ثم يصف ألوان الطعام بإسهاب ، وذلك لا يقع إلا من رجل مدّرع بالعافية

ويدرس الوجوه باهتمام شديد ، حتى جاز أن يحكم لفتاة بالجمال ، ولم ترها عيناه ، لأنه لاحظَ أن أخاها جميل

ويدرس عواطف أصحابه بمهارة وحذق فيعرف ما يطوون فى صدورهم من لواعج وأشجان ، ثم يمضى فيتعقب ما بينهم وبين نسائهم من كدر أو صفاء ، وهذا التطلع لا يقع إلا من رجل متشوف إلى درس الغرائز والطباع

وهل ننسى حديث « السبحة » فى ساعة أُنْس ؟

كان فى القافلة فتًى رخيم الصوت ، وكان أحمد حسنين يتشهى السماع ، ولكن الفتى له عمٌّ كهل ، ومن العيب فى البادية أن يتغنى الشباب بحضرة الكهول

وتلطف أحمد حسنين فاستأذن للفتى من عمه الكهل ، فانطلق الشاب يغنّى ، واندفع الشيخ يسبّح ، ليشغل نفسه بالتسبيح عن الغناء

فماذا صنع أحمد حسنين ؟

أخذ يرصد السبحة ليرى كيف يتواتر خفق الحبات ، فعرف أن حباتها تصاب بالبطء من لحظة إلى لحظة ثم تعود إلى الإسراع ، وكان ذلك شاهداً على أن الكهل الوقور كانت له صَبَوات ، وأن رنين السبحة لم يُلهه عن تشوف المحبين إلى أوقات الوصال

وأحمد حسنين لا ينسى تسجيل ما مرّ به من عواطف ، كأن ينص على أنه استيقظ فى أعقاب حُلم رائع على وجه فتاة حسناء ، وكأن ينص على أنه كان يتلبّث فى بعض المواطن ليزوّد قلبه وعينيه بأطايب الجمال

وجملة القول أن أحمد حسنين شاعرٌ وصّاف : هو يحدّق فى كل شىء ، وهو يصف كل ما يراه وصفاً يشهد بأنه مفطور على قوة الإحساس